حوار بين ابن تيمية و كارل ماركس

(أزمة الوعي الجمعي)

ثلاثون عامًا من القهر والقمع والكبت والتزييف، ثلاثون عامًا من النفاق والكذب والغش. ثلاثون عامًا تكفي لتحويل شعب بأكمله إلى مسخ، وهياكل محشوة بالإحباط واليأس والفراغ المعرفي والثقافي والانحراف القيمي والسلوكي.

إن أزمتنا ليست أزمة إسلاميين ولا علمانيين، إنها أزمة الوعي الجمعي بلا استثناء، أزمة غياب البنية المعرفية، وأزمة غياب المنهج، أزمتنا هي هذا التخبط والاضطراب والتشوه، نحن جميعًا خرجنا من رحم الاستبداد، ورضعنا من ثدي القمع، وفررنا من سجن السياسة إلى سجن الكتب القديمة، وما رأى أحد هذا العالم بعينه هو، بل رآه بعيون الآخرين، فهذا ماركسي، وذلك وهَّابي، وثالث صوفي، وصرنا جميعًا في حاجة إلى ترجمان لأن لغتنا ليست واحدة، كيف يمكن لابن تيمية أن يحاور ماركس؟، وكيف يمكن لهيجل أن يتحدث مع ابن عربي؟ وإذا كان الاختلاف يُعتبر رافدًا من روافد الثقافة وعلامة على خصوبتها وحيويتها، فإن الاستبداد الثقافي والفكر الاستقطابي؛ بات هو المهيمن على المشهد الآني، وحلت فكرة إزاحة الآخر محل قبول الآخر، وغابت علاقة التجاور،

والنسيج أمام سُلطة التفتيت والتشظي، وصارت الأزمة الحقيقية أزمة وعي، وتشوه معرفي له ملامحه التي يمكن إيجازها في الآتي:

§ ملامح التشوه المعرفي العربي Cognitive distortion:

يتكوَّن المجتمع من مجموعة من الأفراد، ومقولة إن المجتمع هو مُحصلة أفراده، مقولة تقترب من الصحة بدرجة كبيرة، وكثير من الدراسات الاجتماعية، توصي بالعناية بالتكوين النفسي والأخلاقي للفرد، حتى ينعكس ذلك على المجتمع.

ولا شك أن سلوكياتنا هي ترجمة لما نحمله من أفكار، فإذا كان مخزوننا الفكري يتسم بالنضج والتطور والإيجابية فإن سلوكياتنا ستكون بنفس الملامح، والعكس صحيح. ومن الواضح أننا نمتلك مخزونًا وجدانيًا هائلاً، واستعدادًا فطريًا كبيرًا للتطور وقابلية للتغيير، لكن المطلوب فقط، هو التعرف إلى مناطق الضعف لدينا، وعيوب التصورات التي تتعلق برؤيتنا لذواتنا وللآخرين وللعالم، لتنقيتها من شوائب الأفكار وغرس أفكار أخرى أكثر إيجابية. ومن ملامح هذا التشوه المعرفي المسيطر على الشخصية العربية:

- سيطرة الأفكار الآلية Automatic thoughts:

وهي الأفكار المخزونة في الذاكرة بفعل التنشئة الثقافية والقوالب المحفوظة، ومن خلال العادة والممارسة والأنماط المستعارة

والمستوردة والفقه الورقي، فترسَّخ لدى العلمانيين أنهم يحملون فكرًا تنويريًا في مقابل الفكر الظلامي لدى الإسلاميين، وأن التجربة الغربية هي التي تحمل معالم الخلاص والنهضة، وأصروا على استنساخها كما هي، دون مراعاة الشرط التاريخي والسياق الحضاري، وهم بذلك يقعون في خطأ التلقين والتعميم الذي يأخذونه على الإسلاميين.

من جهة أخرى فإن الإسلاميين يصرون على تطبيق النص بمعزل عن واقعه، ولا يعتبرون الواقع نصًا موازيًا للنص الأصلي، يتحاور معه شدًّا وجذبًا، أخذًا وعطاءً، لإنشاء صيغة توافقية بين الاثنين. فهذا منهزم أمام حاضر غيره، وذاك منهزم أمام ماضيه، وحينما يؤول أمر الأمة إلى المنهزمين فإن الجمود يكون هو سيد الموقف، ومع كل واقع جديد، تحدث عملية استدعاء وتجنيد لجيوش الذاكرة القديمة، ولا أحد يحاول أن يفكر أو يجتهد أو يشتبك مع الواقع، ليتمكن من ممارسة المنهج التحليلي القائم على البحث ودراسة الأسباب للوصول إلى النتائج، ووضع الحلول المناسبة. إنه كسل فكري، مريح للذات، لكنه مرهق للواقع.

- الترشيح العقلي Mental filter:

وهو يقترب من مفهوم التشاؤم، ورؤية النصف الفارغ من الكأس، مع أن هناك نصفًا آخر مملوءًا، إن وضع نقطة حبر سوداء في كوب ماء كفيلة بأن تصبغ الماء كله باللون الأسود. فمصر ليست

بهذه الدرجة من التزمت الذي يتصوره العلمانيون، كما أنها ليست بهذه الدرجة من الانحراف الذي يصر عليه الإسلاميون، كلاهما ينظر إلى النصف الفارغ من الكأس.

- التكبير والتكوين Magnification or minimization:

وهو يقترب من المفهوم السابق، فخطأ واحد يرتكبه أحد الإسلاميين يتم تفخيمه وتضخيمه، واستغلاله بطريقة إعلامية فجَّة لتخويف وتنفير الجماهير من كل ما هو إسلامي، وهكذا الحال في الجانب المقابل مع فوارق في درجة التشهير والتشويه.

- التعميم Generalization:

ولا يختلف هذا المفهوم كثيرًا عن سابقه، إلا في توسيع الرقعة الأفقية، فهناك يتم تضخيم درجة الحدث، وهنا يتم توسيع رقعته؛ أي تعميم السلبي أو تعميم الإيجابي، فكل ممارسة فردية سواء كانت سلبية أو إيجابية من شخص علماني، تُصبح معيارًا للحكم على كل العلمانيين، وكذلك الحال بالنسبة للإسلاميين، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يمتد إلى استيراد تجارب الآخرين، والإصرار على تعميمها وتطبيقها بطريقة القص واللصق، دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن مناطق الشبه والاختلاف، فلابد من تطبيق النموذج الغربي كما هو، مع أن النموذج الغربي لم يكن نموذجًا إستاتيكيًا، بل هو في حالة صيرورة دائمة، وما نراه الآن

ليس هو النموذج النهائي الذي استقر عليه الوعي الغربي، بل هو مرحلة من مراحل تطوره وتشكله، وما الأزمة الاقتصادية الأخيرة وممارسة النقد الذاتي ووضع آليات جديدة؛ إلا دليل على قابلية العقلية الغربية للتغيير والاعتراف بالخطأ.

- الكل أو لا شيء All or nothing thinking:

وهي التعامل مع الأمور بطريقة مطلقة، واستخدام عبارات مثل كل ودائمًا وأبدًا وتقديم وتقييم الأشياء بلونين اثنين إما أبيض أو أسود، مع أن كل لون على حدة هو مجموعة من المستويات والدرجات. وهذه الطريقة لا تصلح لإدارة البيت فضلاً عن المجتمع. وإن بين نعم ولا هناك عدد كبير من البدائل والخيارات، ولا شك أن طريقة إما الكل أو لا شيء طريقة سهلة، لأننا تعودنا ألا نفكر، فهي لن تتطلب منا عناء البحث والتحري، لكن نتائجها لن تكون سهلة، لأنها باختصار تعني أننا قد نختار طريقًا محفوفًا بالألغام. دون أن ندري، وكما قال أحد المفكرين:

"ليس مطلوبًا منك أن تفهم السياق أو طبيعة الموقف لكي ترى أحقًا هي فكرة طيبة، ليس مطلوبًا منك أن تفكر فقط عليك أن تتذكر، ثم انطلق، إنه أمر يبدو سهلاً".

"You don't have to understand the context or situation to see if it really is a good idea. You don't have to think! You just memorize and go. Now that's easy!"

- التعليل العاطفي Emotional reasoning:

ويعني ذلك استنتاجًا عاطفيًا وموقفًا وجدانيًا من قضية ما، وهي طريقة تحوي قدرًا من الطفولية أحيانًا، فحين يرفض الأب إعطاء طفله مصروفه لسبب ما، يحكم الطفل بأن أباه لا يحبه، وإذا طلب المرؤوس من رئيسه الانصراف مبكرًا لظروف ما، لكن الرئيس لم يقبل، فإن ذلك يعني أنه يمارس ضده نوعًا من الاضطهاد، دون أن يلتمس أي عذر آخر وهكذا الحال، فكل من ينادي بتطبيق الشريعة متخلف ظلامي رجعي، وكل من ينادي بتأجيل التطبيق حتى يتم إعداد وبناء المجتمع، هو معاد للإسلام، وعلماني ملحد.

- غياب النقد الذاتي Self criticism or auto critique:

فالإنسان العربي لا يحاول أن يراجع أفكاره وأطروحاته، ما يناسب الواقع وما لا يناسبه، لا يحاول أن يقول: ربما أكون مخطئًا وغيري قد يكون مصيبًا. وغياب النقد الذاتي يحمل قدرًا ليس هينًا من الاستعلاء والغرور الفكري.

- القفز إلى النتائج Jumping to conclusion:

ويقصد به الاستنتاجات بدون أدلة أو دلائل وقرائن، وغالبًا ما تكون سلبية وتعسفية، وتنشأ بسبب زيف يسمى ادعاء القدرة على قراءة أفكار الآخرين mind reading، فيتم الحكم على نوايا الأشخاص

وإصدار أحكام متحيزة ضدهم من المظهر، أو بعض العبارات بدون تمهل. وأذكر أنني كنت جالسًا مع أحد أصحاب دور النشر المشهورة، وقد دخل علينا رجل عاجز مشلول القدمين يجلس على كرسي متحرك، وبمجرد دخوله قال له صاحب المكتبة، الله يسهل لك، فقد ظنه متسولاً، فأجابه الرجل لقد حصلت على الدكتوراة وجئت لأطبع رسالتي لديكم، فشعرنا سويًا بحرج بالغ.

- التكهن fortune telling:

وهو توقع شخصي لما يمكن أن يحدث قبل حدوثه دون تحليل موضوعي، فالشريعة عند البعض إذا طبقت، فإن المجتمع سيتحول إلى مجموعة من المشوهين، دون محاولة فهم مصطلح الشريعة، وماذا تعني؟ ومتى تطبق؟ وكيف تطبق؟.

كانت هذه إطلالة سريعة على ملامح التشوه المعرفي العربي، والتي كان من نتائجه بعض المآزق التي سنتعرض لها بإيجاز.